مشروع فكرة الوحدة
كما يتصوره مالك بن نبي في شكل كمنولث الإسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،

فيمكن القول بأن انتهاء فكرة الحرب الباردة لم تختف تمام الاختفاء لدى أصحاب التفكير ـ الجيو سياسي ـ لخصوم الأمس فما يزال الغرب يعتبر روسيا بمثابة الاتحاد السوفياتي، كما أن روسيا ما تزال قلقة مما تقوم به الولايات المتحدة في الميدان الدولي، وتأخذ في الاعتبار المواجهة القديمة، مع أن روسيا شريك محتمل للمجموعة الأوروبية، وحلف الأطلسي باعتبار أن السلم العالمي تهدده النزاعات الإقليمية.

طرأت عدة متغيرات أيضا على الساحة الدولية، ومن ذلك أن مبدأ عدم التدخل في شؤون الدول غير معمول به في العلاقات الدولية اليوم بدعوى "الجرائم الدولية" التي تتطلب تدخل الدول على أساس ما عبر عنه الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان "بالسياسة الخارجية الأخلاقية" بحيث تصبح المصلحة الجماعية الدولية معادلة للمصلحة الوطنية.

ومن أهم المتغيرات تغير المفهوم الاستراتيجي للحلف الأطلسي، بحيث أصبح سائرا مع الاتجاه الذي سارت إليه الأمم المتحدة من التدخل أيضا بعدما كان هدفه دفاعيا فحسب.

ومن شأن العدوان على مبدإ عدم التدخل وإلغائه أن يهدم أسس النظام الدولي، بدعوى أنه يقوم على الاعتبارات الإنسانية التي تختلط في الواقع مع المصالح الاستراتيجية والاقتصادية التي يقوم عليها مبدأ التدخل باسعمال القوة العسكرية، وهذا يمكن أن يؤدي إلى ازدياد الحروب بدلا من أن يؤدي إلى حل الأزمات والنزاعات الإقليمية، كما يصبح مفهوم الردع كافيا لمنع حدوث هذه النزاعات.

إن الظروف الراهنة التي نشاهدها يوميا تدعو إلى ضرورة حوار لإقامة نظام أمني فعال لا يقتصر على منطقة الحلف الأطلسي، وإنما يكون بمشاركة كل دول العالم وشعوبها من أجل الوصول إلى سلام عالمي له مواثيقه وأسسه، التي تضمن له نوعا من الدوام بما في ذلك العالم الإسلامي، الذي يتوجس منه الغرب وينظر إليه بعين الريبة دون وجه حق،صارفا بذلك نظره عن القيم المشتركة بين رسالات الوحي والحضارات، بل اتجه جزء لا يستهان به من الإعلام الغربي والدراسات السياسة والثقافية إلى تشويه المبادئ المثلى للإسلام، إن لم يتجاوز ذلك إلى محاولة التحكم في عقيدة المسلمين، أو الاستهانة بها، وسلك بعض الاستراتيجيين السياسيين مسلكا يدعو إلى صدام الحضارات، وإيقاد الحرب بين الثقافات التي لا تؤدي إلا إلى الكوارث وإلى الرغبة في الانتقام، مما يجعل الشباب في العالم الإسلامي يشعر بأنه مهدد منبوذ.

إن المعايير المادية وحدها لا تكفي لحل أزمات المجتمع الدولي، بل إن الأساس في تجمع البشر في علاقات سليمة هو "منظومة القيم" التي تشترك في الإيمان بها، وإذا كانت المعايير المادية قد تراجعت في بلداننا الإسلامية، واختل التوازن في الأوضاع المعيشية، وضعفت التنمية الاجتماعية، وعدم ترسخ أسس الشرعية والاستقرار السياسي في كثير من البلاد الإسلام مما يتطلب جهودا عظمى لإعادة التوازن الاقتصادي فيه وإلى تقوية التنمية، وترسيخ الشرعية، فإن لنا في العالم الإسلامي ما هو أكبر أهمية وحيوية، ألا وهو منظومة القيم الإسلامية، ورسالة الإسلام التي جاءت للعالمين جميعا.

ولكن المسلمين قصروا في نقل هذه القيم الروحية إلى قيم اجتماعية في واقع الناس، فغاية الإسلام ليست الانغلاق في منظومة غير منفتحة على الآخرين في هذا العالم، لان اختلاف الشعوب في الألسن، والألوان، والثقافات، الغاية منه التعارف والانفتاح على هذا الاختلاف الحضاري.

والإسلام بقيمه قادر على أن يقدم رؤية تشارك هذه الرؤية التي تجري صياغتها للعالم اليوم، الأمر الذي تدعو إليه المنظمات الدولية كاليونسكو التي تدعو إلى "ثقافة السلام" و"ثقافة التسامح" وقبول الآخر.

ولكن هل قدم المسلمون مفهوم الإسلام لهذه الرؤى بوضوح، وحضور وفعالية في مجال

العلاقات بين الإسلام والغرب ؟، ويجب أن تصاغ الرؤية الإسلامية صياغة تقنع الآخر، وتجعله في اطمئنان وتزيح عنه كل توجس وريبة، وبذلك تتأسس استراتيجية قائمة على مبدإ التعارف والانفتاح، وهذا سبيل أيضا للتجديد الحضاري، ومشاركة الإسلام في الحضارة العالمية الآن، وفي المستقبل ولترشيد زحف العولمة في بعده التقني على الأقل.

لأننا إذا صرفنا النظر إلى العولمة فإنها تؤدي إلى فرض نمط واحد من الثقافة، ومحو ثقافة الآخرين وهويتهم، بطغيان نموذج حضاري منفرد، ولكن هل يمكن الوصول إلى نموذج ثقافي عالمي يجمع السمات المشتركة بين الحضارات ؟ يبدو أن الاتجاه يصب في هذه الصيرورة إلى العالمية، كما تشهد لذلك عدة شواهد.

إن مفهوم التعارف يقوم على التفاعل كما تشير إلى ذلك الصيغة اللغوية العربية، وذلك بإقامة الشراكة المعرفية بين الانا والآخر كما يقال، والإنسان عدو ما جهل، والمعرفة تزيل هذه العداوة، ويزداد الإنسان معرفة بنفسه إذا عرف الآخر، ولأن الثقافات ينساب بعضها في بعض بلا فرض ولا عنف، ويشق ذلك كله طرقا غير مرئية، أما إذا استعمل العنف فإن ذلك يؤدي إلى رد فعل مضاد وإلى الانغلاق.

ونرى العالم اليوم يتقدم نحو تنمية اقتصادية ورخاء مادي وديمقراطية سياسية، وعدالة اجتماعية في العالم الآسيوي، في الصين، والهند، واليابان كأن بداية دورة حضارية جديدة في الأفق. ولعل دورة الحضارة الغربية أخذت في اتجاه الأفول بعد إشراقها، ولعل هذا أدى ببعض الإستراتيجيين السياسيين إلى اتخاذ نظرة صدامية تشاؤمية إلى المستقبل، فأوصوا بإيقاد نار الحرب والشقاق، وهذه العولمة الزاحفة ليست شرا كلها،ولعل فيها فرصا لإمكانية امتلاك التقنية، بهذا الوزن الكبير اليوم في المجال الدولي.

يرى مالك بن نبي أنه قد سيطرت على الحياة الدولية، مع الأسف إرادة القوة، كأنها قانون لسلوك النفسية الغربية ، وهذا ما يسجل التأخر الخلقي لإنسان الغرب[1] إزاء تقدمه المادي وذلك أن غايته بسط نفوذ إمبراطورية جديدة يرد كل شيء فيها إلى معيار القوة،

١. مالك بن نبي، فكرة الافريقية ـ الآسيوية، القاهرة، مكتبة دار العروبة ١٩٥٨، ص٢٣.

وانتهاج سياسة الأخذ بالثأر، وبرهنت الأحداث الدولية الحالية لأصحاب الإمبراطورية ومنطق القوة على عجزهم الأخلاقي في أن يحتلوا مكان القيادة في العالم، بسبب هذا المنطق الوحيد منطق القوة.

فعلاج المشاكل الإنسانية لا يكون بمنطق القوة الذي يؤدي إلى الدمار، وإنما يكون بما يسميه مالك بن نبي منطق البقاء الذي يمنع وقوع الكوارث.

إن فرص السلام لا تتوفر مع المعدات الضخمة للحرب، التي ليس من شأنها إلا زيادة فرص الحرب، ولا تخف الأزمة مع تزايد هذه المعدات التي توجه موارد البلاد إلى استثمار غير صحيح وغير مجد.

و لذلك يقترح إيجاد محور آخر غير محور القوة ومنطقها، يكون ذا أساس أخلاقي ومحورا للسلام، وعدم العنف، ويكون منطقه منطق أمن وسلام على المعمورة، وملجأ للإنسانية في حالة طوفان ذري، ترسو بعيدا عنه سفينة نوح الجديدة.

إن محور القوة ظل تحت وصاية الكبار في إدارة مصالحهم الخاصة لضمان امتيازاتهم لا لضمان المصالح الحيوية الإنسانية، ولا لتحقق تنظيما فنيا لعلاقات الإنسانية يؤدي إلى تحكيم دولي يرضي الناس، ليجد التقدم الأخلاقي صوته مسموعا ومؤثرا في صورة دستور أخلاقي دولي، لا يسمح ببيع مبدأ بكمية من القمح، أو بشحنة من الأسلحة، بحيث ينحو العالم نحو تكامل ذي مستويين، يرفع في أحدهما الإنسان الذي يعاني من التخلف إلى مستوى الحضارة، ويرفع في ثانيهما الرجل المتحضر إلى مستوى الإنسانية الاخلاقي، وبهذا ينحو العالم نحو التكامل، ويؤدي إلى إيجاد نموذج عالمي يحقق وحدة التنوع الإنساني التعارفي الذي دعا إليه القرآن الكريم.

لكي تأخذ الدولة مكانة الصدارة في العالم، لابد أن تكون لها سلطة أخلاقية ومبدأ انساني، وهو اليوم مفقود، ولا وجود له في هذا الاستعمال للقوة، وللتقنية المدمرة، ولا يمكن أن يؤدي النجاح المادي الميكانيكي إلى فضائل أخلاقية ولا إلى تحقيق قيمة الديمقراطية في مجال حرية الإنسان.

إننا نلاحظ أن العالم الغربي فيما يرى مالك بن نبي، لا يحمل فضائله خارج عالمه فهو لا يكون إنسانيا خارج حدوده بقدر ما يكون أوروبيا أو أمريكانيا، أي أن صلتهم الخارجية

صلة اقتصاد أو استراتيجية لا غير.

فغيرهم وحشي غير متحضر لا يستحق الحياة إلا إذا كان مواليا لهم، أو تابعا ذليلا وهو الأمر الذي يحمل الناس على أن يتخذوا اتجاها متحديا عنيفا ردا للفعل، وإن اتخذ صورة عمياء في أحيان كثيرة.

وضعية العالم الإسلامي اليوم تشكو من فقر في عالم الأفكار والمناهج والتخطيط والتقنية ويعاني فشلا في التنمية رغم الجهود التي لا تنكر. والإمكانات التي بددت، دون نجاح واضح في الإقلاع الاقتصادي، والاجتماعي، بالإضافة إلى الانقسام والاهتمام بالمشكلات المحلية الجزئية القريبة المدى في عالم مخطط سريع الصيرورة بعامل التقنية وانفجار المعلومات.

إن غيرنا يراقب وضعنا ويهيء لنا قشور الموز التي يتوقع منا أن ننزلق عليها، وننحرف عن الطريق، فيما يقول مالك بن نبي.

يتعرض المسلم اليوم للضغوط الخارجية التي تتزايد يوما بعد يوم، وهو ما يراد بالعولمة، أي الاقتصاد العالمي الذي لا يكون مكاننا فيه سوى مكان المستهلك، وفقدان السيادة،ليكون القرار النهائي اقتصاديا وسياسيا لغيرنا أيضا. فهذه العولمة التي قررتها الدول السبع أو المثاني ليس بينها مكانة لأي دولة إسلامية.

كي يؤدي المسلم "دوره" لابد أن يثبت حضوره، وأن تكون له أفكاره المستقلة، وأن يحتفظ بحريته في القول، وفي الفعل، كي يكون مؤهلا لأن يشارك مشاركة حقيقية في قاعدة صلبة.

دون هذا لا نضمن أداء دورنا في هذه العولمة، ولأن العولمة يجب أن تكون بناء واعيا إراديا يعبر عن إرادة شعوب الأرض، فالعالمية عند مالك بن نبي في معناها الحقيقي هي التي تنحو إلى اتجاه حضارة إنسانية وتخدم مصير سكان المعمورة، وبذلك تتكون حضارة جديدة عالمية تقوم على القيم المشتركة تتحد على أساسها وجهة الانسانية لنجاتها ونجاة هذه الأرض التي تهددها الحضارة الإمبراطورية بالفناء، وبذلك يمكن إنقاذ العالم من أخطار منطق القوة.

إن الإسلام يمكنه إذا تحولت قيمه إلى قيم اجتماعية أن يؤدي هذا الدور، دور الإنقاذ لأنه جعل موانع تمنع من اضطهاد الآخر من جهتين:

الاضطهاد الزمني بالعدوان على الآخرين: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ

عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١].

كما منع من الاضطهاد الديني ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢]، وهذا لا يتم إلا إذا ترجمت القيم الروحية الإسلامية إلى قيم اجتماعية فعالة، إلى طاقة تحرك الفرد والمجتمع في التاريخ على ضوئها.

ثقافة المسلم محورها الدين، فالإسلام دين محوري، محور حياة المسلم وحركته، والأوامر الإلهية عنده أرسخ في النفس، يستجيب لها أكثر مما يستجيب للأوامر العادية، ومن ثمة جاءت ضرورة تجديد صلة قلب المسلم بهذه المبادئ لتعطي ثمراتها في واقعه النفسي والاجتماعي.

ما الذي تركته الشيوعية بعد رحيلها عن مسرح الأرض للعالم الإسلامي؟ لم تترك له مجالا للأسلحة النووية ولا أن يسيطر على المساحات الجغرافية، وإنما تركت فراغا آخر يمكن للإسلام أن يملأه، إنه "محور السلام" ليكون محوره والداعي إليه في المقابل "محور الحرب" الذي وجد من يتخذه محورا ومسرحا لما نشاهده اليوم، إذا ماتت الشيوعية قبل ان تجهز على الرأسمالية والإمبريالية كما يقولون، وظن الناس، وخاصة محور الرأسمالية أنه إذا ماتت الشيوعية فقد صح لهم القياس بان الرأسمالية باقية فهي إذن على حق، ولكن هذا قياس خيالي، لا سند له، لأن الشيوعية قضت بسبب مرضها الصبياني الخاص بها، وليس هذا دليلا على أن الرأسمالية لا تمرض أو أن لها حصانة تصونها من التعرض للأمراض ثم الموت.

إن البشر إذا هزموا في التاريخ فإنهم يجدون أنفسهم في حاجة إلى دوافع جديدة وإلى أفكار يلجؤون إليها لاستمرار وجودهم وجهادهم، ولإنقاذ حياتهم فيتجهون بطبيعة الحال إلى القيم الروحية والإنسانية القادرة على أن تغذي طاقتهم الدفاعية.

إن المسلمين يشعرون أن الإسلام فيه إمكانية طاقة عظيمة تمكنهم من الدفاع عن ذاتيتهم مما يهددها، والمهدد قد يتصرف أحيانا تصرفات عمياء، كما قلنا، لا حكمة فيها ولا بصيرة، وفهم غيرنا هذا جيدا، فأعلن عن الإسلام أنه العدو الجديد، وأنه مكمن الإرهاب، وركزوا على مفهوم الإرهاب بإلحاح شديد، حتى أقنعوا بعض الناس بهذا، وعمموا ذلك ليشمل

١. القصص:٨٣.

٢. البقرة:٢٥٦.

حركات التحرر الوطني، التي كان معترفا بها في القرن الماضي، فأصبحت في هذا القرن إرهابا كحركات تحرير فلسطين وغيرها، قلبا للحقائق، وهو أمر قد يقنع به منطق القوة كثيرا من الناس، ولكن ينبغي أن نسجل أن الشعوب الغربية لم تغفل عن موقفها الإنساني في شوارع مدنها بأعلى صوتها بما في ذلك بعض المفكرين ورجال السياسة.

مبررات المشروع:

و هذا الذي يجعلنا نتوقع اتجاه العالم لبناء ثقافة انسانية مشتركة يؤدي الإسلام فيها وظيفته بما يأتي به من عناصر جوهرية لإقامة هذا البناء، وهو مؤهل لهذا أيضا بوضعه الجغرافي الخاص به، وذلك ضمن حدوده على القارات الثلاث: آسيا وإفريقيا وأروبا، فهذا الوضع يمثل **"قارة وسطا"** كما سماها بذلك صاحب الفكر الاستراتيجي نابليون، فهي مفترق كل الأجناس البشرية قديما وحديثا، مما يجعل في الإمكان تكوّن وحدة إنسانية، لا مجرد وحدة بيولوجية أو اجتماعية أو سياسية، وإنما هي وحدة ذات طابع روحي، ومن خلال التجارب التاريخية والمعاصرة أدرك أن ميزان السلم والحرب إنما يقوم في **"الشرق الأوسط"** حيث يقع مركز الثقل في الاستراتيجية العالمية كما يستخلص ذلك مالك بن نبي، وهي المنطقة التي لم تخل من الصراع في كثير من مراحلها التاريخية إلى اليوم.

العالم الإسلامي اليوم تكبله مشاكله العاجلة والحلول العاجلة، والارتجال وضعف جهاز الأفكار والمفاهيم، والتعلق بالأشياء دون الأفكار التي تنجزها، وعدم الفعالية،و الاتجاه إلى التكديس لا إلى البناء ـ إما في الأشياء أو في الأفكار ـ وغياب المنهج الذي يربط الغايات بالوسائل، فهو تزداد حاجاته ولا تزداد أفكاره،و ليس على علم كاف بالاتجاه العام للعالم الراهن، يعيش في غير تاريخه، يعيش بلا خطط في عالم مخطط يدرك منه أشياءه وتخفى عليه أفكاره، جرب الرأسمالية والاشتركاية فلم تجد نفعا، لا الأولى ولا الثانية وهذا ما يمثل الفوضى والذبذبة واللجوء إلى العنف وإزهاق الأرواح، وكما قال مالك بن نبي فإن التغيير قادم، فإن لم نغير أنفسنا فإن غيرنا سيغيرنا، في آخر وصاياه قبل ما يزيد على ثلاثة عقود من الزمن، فوضع قبل ذلك مؤلفه فكرة الإفريقية ـ الآسيوية أسئلة ثلاثا:

- ما الذي يجب تغييره في النفس المسلمة كي تتعافى من أمراضها في العالم الإسلامي؟
- ما هي وسائل ومناهج هذا التغيير؟
- ما هو الهدف الذي نقصد إليه في هذا التغيير؟

و المشكلة اليوم ليست في البرهنة على أصالة الإسلام وصحة عقائده وتعاليمه، وإنما المشكلة في رؤية مالك بن نبي، في فعالية المسلمين أنفسهم، أي في أن تتحول هذه القيم الروحية ـ كما أشرنا إلى ذلك ونؤكده ـ إلى قيم اجتماعية، إلى طاقة متحركة، إلى حياة إلى قيم عاملة ومؤثرة، وإذا بحثنا عن مصدر هذه الفعالية فإننا نجده في هذه الجذوة الروحية التي هي بمثابة المحرك الذي يدفع الإنسان إلى مسرح التاريخ يسجل على صفحاته ثقافته وخلقه وقيمه، وإن شئت قلت ينجز أعماله الحضارية.

و ليس من المصادفة أن تجد مجتمعا مّا عندما يستيقظ بعد قرون من النوم أن تكون فعاليته الأولى تتجه إلى الصراع من أجل السلطة السياسية بطريقة لا تعتمد على حكمة ولا على رؤية واضحة، وهذه الظاهرة من الناحية النفسية الاجتماعية نوع من المرض الصبياني كما يسميه مالك بن نبي، ولا يصيب هذا المرض الفكر الديني فحسب، وإنما يصاب به أيضا كل فكر يتحرك بلا وجهة ولا غاية محددة، وإنما لإثبات مجرد الوجود والبحث عنه في أعمال عنيفة، لا يفكر صاحبه في غاياته ولا في وسائله، وهذا ما يعبر عن رؤية مغلقة للإسلام وللعالم أيضا بالنسبة لجماعة منا، في أوطاننا.

و السؤال المطروح : هل نعد أنفسنا لنأخذ مكاننا في هذا العالم ؟

و هل نستطيع تجاوز مستوى الأشياء)وهو مركز اهتمام سن الطفولة(إلى مستوى الأفكار التي هي علامة النضج، فعلامة نضج الفرد أو المجتمع إنما هي أن ينتقل من عالم الأشياء والأشخاص إلى عالم الأفكار، وهذا هو الشرط في أن تصبح مناشطنا وأعمالنا متماسكة ومتواصلة ومنهجية.

و عليه فعلينا أن نحرر شبابنا من التقليد الأعمى للأشخاص، وأن نعرفهم بالأفكار التي حررتها عقول كبيرة من أسلافنا وأخلافهم، وطالما نبهنا القرآن إلى ذلك حتى بالنسبة لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١].

إن كل فكرة لا يقوم لها قوام ولا تؤتي ثمراتها إذا لم تكن منغرسة في الضمائر، مندمجة في السلوك، فيكون المعيار هو المبدأ لا الشخص، لأنه إذا أخطأ قد يجر تقليده إلى كارثة، شعر أو لم يشعر.

إن الإسلام أصبح شيئا فشيئا، سلاح الشعوب التي تكافح ضد احتكار العالم من قبل الأقوياء، والإسلام هو المؤهل ـ كما قلنا ـ لهذا التحدي الذي يواجه الإنسانية في صورة العولمة، وغيرها من صور احتكار العلم و التقنية والاقتصاد، وليس من الضروري أن تكون مسلما لكي تدرك الظلم وتكافحه، إذ نرى جماعات من الغربيين مصممين للعمل ضد العولمة، فتعامل هذه العناصر مع المسلمين يكون لتحقيق الغايات الإنسانية المشتركة على محور السلم، لا محور الحرب، فإن الخطر يهدد كل الثقافات والقيم بما في ذلك الثقافة الغربية التي ستلقى حتفها بظلفها إذا استمر قادتها في المضي في سبيل الحرب، والانتقام، واحتكار الهيمنة على العالم لحساب توسع إمبراطوري يخلف الإمبراطوريات القديمة ويرث أثقالها وأوضارها وأوزارها.

مما سبق تبدو مبررات وضع مشروع وحدة تتخذ شكل فدرالية كما تصورها مالك بن نبي، على النحو الذي شرحه في كتابه الذي غفل عنه الناس، أو غيبوه بوسائل يدركها الذين يديرون الصراع الفكري ويرصدون الأفكار التي تحدث لهم انزعاجا أو يرونها خطرا على استراتيجيتهم.

المشروع وآلياته في خطوط كبرى :

شعر مالك بن نبي بأهمية وضع المشروع وصعوبته وتعدد جوانبه ومشكلاته، ولذلك بين أنه يتطلب عملا دقيقا، ودراسة معمقة على صعيد العالم الإسلامي.

ومثل هذه الدراسة لا يمكن أن يقوم بها فرد واحد، وإنما هي مهمة هيئة من أهل الاختصاص، كل في دائرة اختصاصه، تكون هذه الهيئة تحت إشراف مركز بحوث جدي إزاء هذا العالم الخاضع للتخطيط والمنهج العلمي، وذلك بدراسة وضع العالم الإسلامي دراسة تأخذ بعين الاعتبار أمراضه وإمكانية المعافاة منها في هذه المرحلة من نموه، فهو يتعلق ـ كما قلنا ـ بالأشياء وتكديسها، لا بالأفكار وصياغتها، فهو لا يرى في هذا العالم أفكارا بقدر ما يرى

١. آل عمران: ١٤٤.

الأشياء، فالضرورة تحتم الانتقال من عالم الأشياء إلى عالم الأفكار التي هي القوة الفاعلة اليوم.

فالحصول على الأشياء أيسر بكثير من المجهود الذي يبذل لامتلاك الأفكار الضرورية لصنع هذه الأشياء، وكان من نتائج ذلك تنمية الحاجة إلى الأشياء لاستهلاكها، فزاد حجم الأشياء أكثر مما زاد حجم الأفكار فأصبح المسلم يعيش في عالم ليس له أفكاره بقدر ما له من أشيائه، إنه يشتري منه الأشياء من غير فهم للأفكار التي تمثلها، ضرب مثلا لذلك باليابان التي تمثلت الأفكار، بينما المجتمع الإسلامي ما يزال يشتري الأشياء، ولا وجود لديه لأية صلة واضحة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، فهما عالمان منفصلان، ولا ترابط عضوي بينهما.

و معنى ذلك أنه يجب دراسة هذه الظواهر وغيرها مما يعانيه المجتمع الإسلامي من أزمة في النمو منذ بدء نهضته،و ما صاحب ذلك من وهن في الرأي أو سخط على الوضع، أو تطرف في وجهات النظر دون الخروج من أزمته.

إن عالمنا الداخلي هو الذي يتضمن العلة لا العالم الخارجي وحده كما يزعم بعض الذين يعتذرون بالاستعمار، ويعفون أنفسهم من المسؤولية، نحن في حاجة إلى علاج لا تمثله سوى إرادة جماعية قائمة على مبدأ روحي أخلاقي، ومن هذه الإرادة الجماعية تنبثق فكرة "كمنولث إسلامي" التي تكون غايتها الوصول إلى حل لما يواجهه العالم الإسلامي.

و قد أبدى ملاحظة مهمة وهي أنه إذا كان التخلف هو السمة الرئيسية للعالم الإسلامي، فإن أزمته ليست في طبيعة المشاكل التي يعانيها المجتمع المسلم بقدر ما هي في موقفه من تلك المشاكل وضبابية رؤيته.

و إذا كنا نريد أن ندرس مشاكل العالم الإسلامي وواقعه لوضع مشروع مثل هذا فإن الخطوة الأولى هي دراسة المجال الجغرافي للمشاكل التي نريد دراستها، إذ هناك مشاكل ذات صبغة قومية محلية توجد حلولها في البلد نفسه الذي تختص به، لكن هناك مشكلات لا تحل إلا في نطاق واسع، في العالم الإسلامي أو في العالم الإسلامي نفسه مع العالم الآخر.

فالعالم اليوم يأخذ بعين الاعتبار المجال الجغرافي في المخطط لغايات استراتيجية (جيو ـ سياسية) مثل كتلة الحلف الأطلسي والصين، والاتحاد الهندي، هذه المجالات التي تتمركز فيها القوة أو هي في طريقها إلى ذلك، ولهذا لابد من النظر إلى هذين العنصرين : المساحات

الجغرافية الواسعة، والكتل البشرية الضخمة.

و يشعر المسلم إزاء هذا كله بأنه عديم الجدوى، وأن التاريخ يصنع بدونه، وأنه عنصر ينتمي إلى عالم لا تخطيط فيه، وأن التطور تجاوزه.

و لذلك تبدو ضرورة وضع تخطيط للعالم الإسلامي، آخذا في الاعتبار المجال المعنوي وذلك باتخاذ الوسائل الكفيلة بالتخفيف مما تعانيه النخبة الإسلامية من ثقل الأحاسيس السلبية كالإحباط واليأس، ولا نحصر دراستنا في الجانب الاقتصادي والإمكانات المادية.

مساحة العالم الإسلامي تمتد على خطي طول طنجة ـ جاكارتا، وبين خطي عرض مدينة الجزائر ودار السلام، وهي مساحة تحتاج أن تأخذ مظهرها الفني الذي هو مظهر التنفيذ باعتبار العامل الجيو ـ سياسي الذي يبدو اكثر تعقيدا، إننا لا نجد أنفسنا أمام عالم إسلامي واحد، وإنما تجدنا إزاء عوالم إسلامية متعددة:

ـ العالم الإسلامي الإفريقي.

ـ العالم الإسلامي العربي .

ـ العالم الإسلامي الإيراني (فارس، أفغانستان، باكستان).

ـ العالم الإسلامي الماليزي (إندونيسيا ـ والملايو).

ـ العلام الإسلامي (الصيني والمغولي).

فنحن إذا أردنا أن نضع تصميما للعالم الإسلامي لابد أن نأخذ في الاعتبار هذا التعدد لتحديد عامل التكامل الذي يعبر عن الوحدة، وللقيام بعملية تبويب لهذا التعدد المعقد بين العوالم الإسلامية، فموضوع "الكمنولث الإسلامي" الذي ندرسه يقصد من دراسته معرفة أكثر بالعالم الإسلامي لوضع تصميم له، وهذا التصميم لابد أن يراعي كثيرا من المعطيات والضرورات العضوية والمنطقية، منها "كمبدأ التكامل" الذي له المكانة الأولى، والعالم الإسلامي بالرغم مما أصابه من تقلبات تاريخية يحتفظ بعامل أساسي من الوجهة النفسية، وهي الوحدة الروحية، التي تمثل عنصر التماسك وجذوره، ومن الوجهة الفنية تؤدي إلى التوفيق بين عناصره، وهذه الوحدة لا يكون لها أثرها التكاملي إلا إذا قامت على إرادة جماعية للعالم الإسلامي، ولذلك فإن مالك بن نبي يطرح مشكلة "الخلافة" للوصول إلى نظرية

جديدة فيها، قائمة على المعطيات الراهنة للعالم الإسلامي، وربما أدى اجتهاد الفقهاء اليوم إلى تحديدالخلافة تحديدا جديدا لا يصرف النظر في ذلك عما يتضمنه مفهوم الأمة الإسلامية اليوم من تنوع من حيث الجغرافيا والجنس والسياسة.

عرف مالك بن نبي هذه المجموعة من الدول التي تكون هذه الرابطة على أساس ضروريات منطقية وضروريات تكيفه مع تطوره، وتكيفه مع تطور المخطط، فهو إذن "اتحاد فدرالي بين العوالم الإسلامية يترأسه مؤتمر إسلامي يقوم بدور الهيئة المنفذة لهذا الاتحاد."

فهذه خطوط كبرى لدراسة "الكمنولث الإسلامي" لوضع تصميم له، وهي دراسة تتطلب أكثر من شخص ووقتا كافيا للقيام بها.

و إذا كان العالم الإسلامي له قطاعات خمسة، فهناك إذن فصول خمسة من العمل والمجهود المتواصل تقوم به هيئة من الفنيين والباحثين الممتازين.

أضاف مالك بن نبي إلى هذه القطاعات قطاعا آخرا وهو ما سماه: العالم الإسلامي الاوروبي، فالمهمة إذن ليست سهلة وتحقيق هذا "الكومنولث" لا يتم ابتداء من المحيط إلى الداخل بل من الداخل إلى المحيط، بحيث لا ينطلق من نقطة إشعاع، ولكن ينبغي أن ينتهي عند نقطة إشعاع، والرغبة في الاتصال تكون من الداخل متجهة صوب نقطة التقاء، لأن الاتصال لا يمكن أن يفرض من الخارج، ولذلك وضع مالك بن نبي تخطيطين أحدهما ينبغي تجنبه لما له من المحذورات وعوارض تؤدي إلى متناقضات، فمن السداد إبعاده، والثاني له ميزات تجعله أكثر سدادا، وأحسن منهجا يمكن السير عليه.

تخطيط يتعين تجنبه:

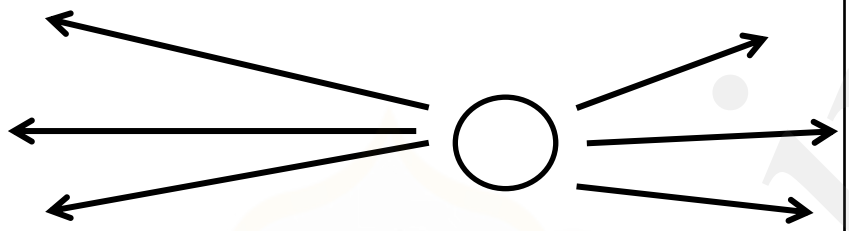

في هذا التخطيط تشع فكرة كمنولث إسلامي من نقطة مركزية بحيث يقع الاتصال بها من الخارج إلى الداخل، هذا المخطط كان قديما في ابتداء الإسلام.

اما اليوم فإنه كما يقول مالك بن نبي يمكن تأويل هذه النقطة المركزية بأنها إرادة سياسية خاصة، تريد فرض الفكرة على غيرها، بالإضافة إلى عوارض أخرى منهجية.

تخطيط ينبغي اتباعه :

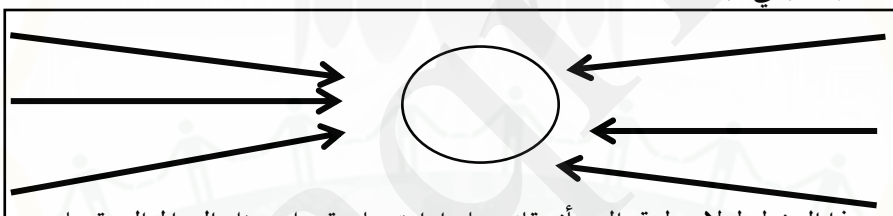

وهذا التخطيط لا يتطرق إليه بأنه قائم على إرادة خاصة، بل يمثل العوالم الستة مما ييسر عملية التكامل، وليكن مركز هذا الالتقاء مكة أو غيرها مما يتفق عليه.

وإذا وزع العمل لتحقيق هذا المخطط على لجان تكلف بدراسة المشروع، نكون بهذا أنشانا تدشينا رمزيا لإرادة جماعية إسلامية للتكامل، في صورة كمنولث إسلامي، ووضعنا حجرا أساسيا في بنائه المرتقب، بإذن الله، فتبدأ الدراسة من داخل كل مجموعة قطاعية، يبدأ من دخوله في عالم الأفكار متدرجا إلى عالم الواقع التاريخي، يجمع هذه اللجان بعضها ببعض وينسق بينها، وربما يبدو أن اجتماع هذه اللجان لا يحمل أي معنى، ولكن يمكن أن ينشأ عن ذلك اللقاء عالم كامل في التاريخ.

كما أن بذرة الحياة ما هي إلا رمز في الحين الذي يضعه الله في الرحم.

وظيفة الكمنولث الإسلامي :

إن الوعي الاجتماعي للفرد اليوم ينشأ ويصاغ في مستوى أوسع أو أكثر امتدادا

يتجه وجوده وحضوره إلى مدى أبعد وأرحب من وطنه.

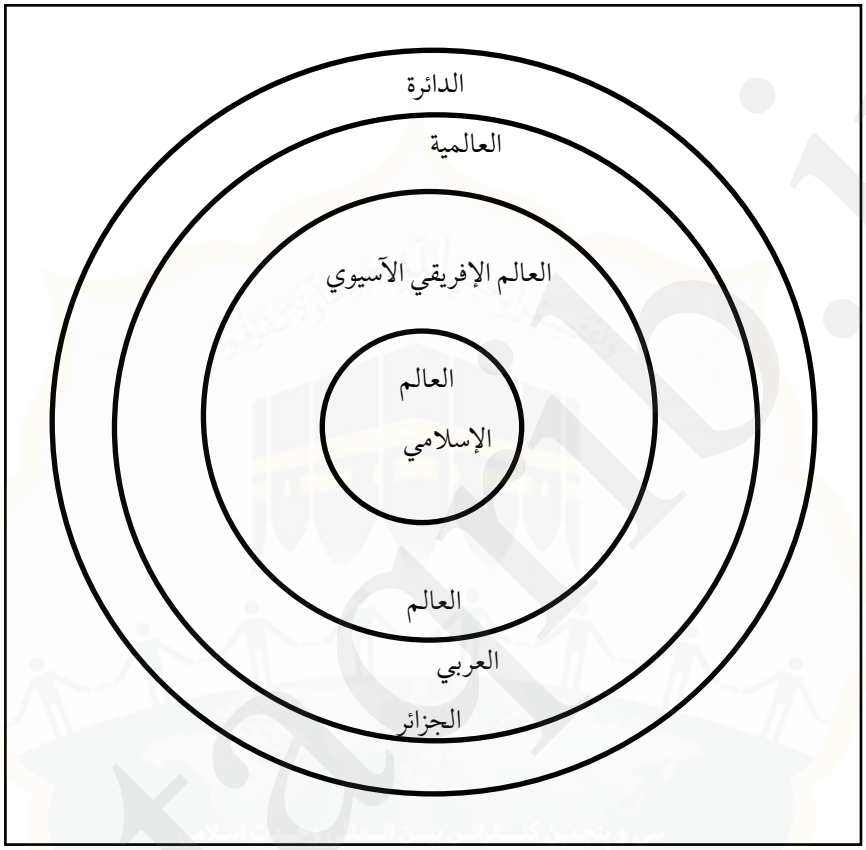

و الكمنولث الإسلامي إنما هو تمديد للمجال الذي ينمو في وعي الإنسان المسلم وتوسيع لمستواه الواعي الشخصي فينبسط في عدد معين من الدوائر:

دائرة وطنه المحلي ثم العالم العربي ثم العالم الإسلامي بمساحته المختلفة ثم العالم الإفريقي والآسيوي ثم الدائرة العالمية قاطبة، كما وضحه مالك بن نبي بالدوائر التالية التي تنطلق من بلد فرد معين كالجزائر مثلا: فكلما امتد على دائرة اتسع إدراكه لمشاكل تلك الدائرة ولاتجاهاته وآماله إلى أن يكتمل ويبلغ مداه العالمي، بحيث يكون حاضرا في كل أجزاء العالم في اتجاهه هذا الانبساطي، ويكون انتقاله من موطنه إلى دائرة العالم مثبتا لوجوده في اكتماله الطبيعي.

و هذا الاتجاه في معطيات المكان والزمان والجغرافيا والسياسة أدى اطراده في العالم اليوم

إلى الكواكب الأخرى خارج معمورتنا، ولقد أصبح المسلم مرغما على أن يعيش في مجالات متعددة فهو مواطن في بلد معين، وفي أخرى يكون من وحدة فيديرالية ذات طابع سياسي سلالي، وفي مجال ثالث يكون عضوا منتميا لمجتمع ذي طابع ديني، وهكذا إلى ان يصبح مواطنا عالميا أو في اتجاه إلى أن يكون كذلك.

إن المسلم فصلت منه العملية التاريخية لحضارته نموذجا اجتماعيا معينا ذا سمات مشتركة بينه وبين أضرابه من المسلمين نلاحظها من طنجة إلى جاكارتا، فالفرد المسلم في جاوة ونظيره في مراكش يعيشان على المحور نفسه : المحور الجغرافي ـ السياسي، وهذ القاسم المشترك لم ينشأ عن الطقس أو عن التراب، وإنما نشأ عن ميراث معين يدينان به إلى هذا التاريخ الحضاري المشترك.

من وظائف الكمنولث الإسلامي تحريك أو كما يقال في عصرنا هذا، تفعيل ما للإسلام ذاته من فعالية اجتماعية، ومن إشعاع في العالم، وتتمثل هذ الوظيفة في نوعين من الوظائف :

إن اتساع دائرة وعي الفرد المسلم فيما ذكره من دوائر يتفق مع الوظيفة التي عينها القرآن الكريم له، ألا وهي وظيفة الشاهد أو المشاهد الأمين لأعمال الآخرين في العالم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

و الشاهد هو الحاضر في عالم الآخرين، لأن قيمة كل شهادة تتوقف على "الحضور" ولذلك فالمسلم يجب أن يكون على اتصال وثيق بأكبر عدد من الدوائر البشرية ومشاكلها، أن يمتد حضوره على أقصى ما يمكن من الانبساط المكاني لتعانق شهادته أكثر ما يمكن من الوقائع، وحضوره هذا ليس مجرد حضور سلبي، بل هو حضور مؤثر في أعمال الآخرين وفي سير الأحداث، ولا يقتصر على الحضور بل يعمل لتجنب الشرور، ويغير مجرى الأحداث، بردها إلى اتجاه الخير بقدر الاستطاعة، كما ورد في الحديث الصحيح: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

---

١. البقرة:١٤٣.

فدرجات الشهادة ثلاث، والثالثة مجرد حضور، والقرآن الكريم أعطى لهذه الشهادة معنى الرسالة، رسالة المسلم في العالم، وإذا كان يتعين على الشاهد أن يثبت حضوره، فإن هذا الشاهد يكون أيضا وفي الوقت نفسه صاحب رسالة يبلغها للآخرين، ومن أواخر وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب" فقد حدد بهذه العبارة، في جملة ما حدد رسالة المسلم في التبليغ في كل العصور بعده، فكأن الأجيال والأجيال التي تأتي بعدها أيضا حاضرة في ذلك المشهد في أشخاص المستمعين إليه، فلذلك يتعين اليوم أن نحمل الرسالة وأن نبلغها إلى كل من غاب في ذلك اليوم، والذين ما يزالون غائبين إلى الآن وما بعد الآن، وإلى الغائبين من إخواننا في الإنسانية.

النموذج البريطاني:

لا يغيب عن القارئ لهذا المشروع أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينه وبين النموذج البريطاني، ولكن أوجه الاختلاف أكثر، فكلاهما ذو صبغة جغرافية سياسية محددة بالمساحة.

و لكن طبيعة المشاكل تختلف، وبالإضافة إلى هذه المساحة، يوجد عامل الكتل البشرية الضخمة مما يضع أمامنا مشكلة ذات طابع جغرافي وسياسي.

و هذه مشابهة واضحة توحي بالحلول وخاصة أن النموذج البريطاني ليس فيدرالية دول، ولا دولة فيدرالية، لأن كل عضو فيها يمارس سيادته في كل المجالات بما في ذلك التمثيل الدبلوماسي الخارجي، بخلاف الولايات المتحدة فهي اتحاد فيديرالي ذو تمثيل ديبلوماسي واحد، ولذلك فالكمنولث الإسلامي أقرب إلى النموذج البريطاني.

و قد صيغ النموذج البريطاني لمواجهة الوضع الإقتصادي العالمي أوتاوا ولائحة وستمنستر بعد الحرب العالمية الأولى وخاصة التحدي الذي كانت تمثله الصناعات اليابانية في انطلاقها في ذلك الوقت.

و إذا كانت ملكة بريطانيا هي التي ترأس هذه الرابطة البريطانية، فإن الإسلام الذي يمثله "مجمع دائم" يجسم الإرادة الجماعية للعالم الإسلامي ومصالحه العامة.

و يكون المقر الرسمي لهذا المجمع هو الوحدة القاعدية التي تتصل بها أجزاء هذا الكمنولث لتتبادل هذه المناطق ما يتعلق بشؤونها الإسلامية وفي الوقت نفسه "مركز

الدراسة" للمشاكل النوعية للعالم الإسلامي ومركز الإنجاز والنشر، لما يصل إليه من حلول، وإذا كانت مشاكل النموذج البريطاني ذات صبغة سياسية اقتصادية بالدرجة الأولى، فإن مشاكل النموذج الإسلامي ينبغي أن تكون ذات صبغة نفسية اجتماعية لتدارك تأخر الشعوب الإسلامية. النموذج البريطاني يمثل محور القوة، والنموذج الإسلامي ينبغي أن يمثل محور "البقاء" ومحور السلام، لأنه يمثل مجموعة شعوب أكثر مما يمثل مجموعة دول.

و لكي تنتقل هذه الحلول من مجال النظرية إلى التطبيق لابد من تخطيط إجمالي يعالج مشاكل الإنسان، ومشاكل الأرض وما إليها يقوم به "مركز البحوث" الذي في استطاعته أن يصبح الأداة الفعالة لبث روح الكمنولث الإسلامي في أجزائه، كما يكون أداة لتطبيق ذلك على أحسن الوجوه.

و ربما يكون الوصول إلى تكوين مجموعة دول فيديرالية بحيث تبقى كل دولة على سيادتها، وأما إذا كانت السيادة للاتحاد، اتحاد هذه الدول فإن ذلك يكون دولة فيديرالية كما يتوقف ذلك على تحديد معنى السيادة أيضا، وتكون لهذه الدول سياسة مشتركة تتفق عليها وتتخذ قرارات لمختلف المشاكل بناء على ذلك.

إذن هذا كله وما يتشعب عنه من جوانب تشريعية وغيرها مما يبحثه هذا "المجمع" الذي تدرس لجانه المختلفة المتخصصة هذه المشكلات، وتصل إلى وضع أسس نظرية وتطبيقية لذلك كله، وقاعدة هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١] ، من أجل وضع المواثيق التي تؤدي إلى تكامل العالم الإسلامي في وحدة متماسكة يمكن لها أن تدافع عن مصالح الأمة وهويتها. وفقنا الله لما يحبه ويرضاه.

---

١. الأنبياء:٩٢.

iuc.taqrib.ir